٥١

(أحمدُ بن عليّ بن مُحمَّد بن مُحمَّد ابن عليّ بن أحمد الشّهاب، أبو الفَضْل الكناني العَسْقلاني)[١]

القاهري الشافعي المعروف بابن حَجَر، وهو لقب لبعض آبائه، الحافظ الكبير الشهير، الإمام المنفرد بمعرفة الحديث وعِلله في الأزمنة المتأخرة. ولد في ثاني عشر شعبان سنة ٧٧٣ ثلاثٍ وسبعين وسبعمائة بمصر، ونشأ بها يتيماً في كنف أحد أوصيائه، فحفظ القرآن وهو ابن تسع. ثم حفظ «العمدة»، و«ألفية الحديث» للعراقي، و«الحاوي الصغير»، و«مختصر ابنِ الحاجب في الأصول» و«الملحة». وبحث في ذلك على الشيوخ، وتفقه بالبلقيني، والبرماوي، وابن الملقن، والعزّ بن جُماعة؛ وعليه أخذ غالب العلوم الآلية والأصولية، كالمنهاج وجمع الجوامع وشرح المختصر والمُطوّل. ثم حبَّب اللَّه إليه فنّ الحديث، فأقبل عليه بكليته. وطلبه من سنة ٧٩٣ وما بعدها، فعكف على الزين العراقي، وحمل عنه جملةً نافعةً من علم الحديث سنداً ومتناً وعللاً واصطلاحاً. وارتحل إلى بلاد الشام والحجاز واليمن ومكة وما بين هذه النواحي. وأكثر جدّاً من المسموع والشيوخ، وسمع العالي والنازل، واجتمع له من ذلك ما لم يجتمع لغيره. وأدرك من الشيوخ جماعة كلّ واحدٍ رأس في فنه الذي اشتهر به. فالتنوخي في معرفة القراءات، والعراقي في الحديث، والبلقيني في سعة الحفظ وكثرة الاطلاع، وابن الملقن في كثرة التصانيف، والمجد صاحب القاموس في حفظ اللغة، والعزّ بن جماعة في تفننه في علوم كثيرة بحيث كان يقول: أنا أقرأ في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أَسماءَها. ثم تصدّى لنشر الحديث، وقَصَر نفسه عليه مطالعةً وإقراءً وتصنيفاً وإفتاءً، وتفرّد بذلك، وشهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد، والعدو والصديق، حتى صار إطلاق لفظ الحافظ عليه كلمة إجماع. ورحل الطلبة إليه من الأقطار، وطارت مؤلفاته في حياته وانتشرت في البلاد، وتكاتبت الملوك من قطرٍ إلى قطرٍ في شأنها، وهي كثيرةٌ جداً، منها ما كمل ومنها ما لم يكمل، وقد عدَّدها السخاوي في «الضوء اللامع». وكذلك عدَّد مصنفاته في الأربعينيات، والمعاجم، وتخريج الشيوخ والأطراف، والطرق، والشروح، وعلوم الحديث، وفنونه ورجاله في أوراق من ترجمته، ونقل عنه أنه قال: لست راضياً عن

(١) ترجمته في: الضوء اللامع: ٢/ ٣٦؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢٧؛ كشف الظنون: ٧، ٢٨، ١٦٧، ٨٧٧، ١٣٢٧، وغيرها؛ إيضاح المكنون: ١/ ١٣؛ ٦٩، ٢/ ١٩٧؛ معجم المؤلفين: ٢/ ٢٢؛ الأعلام: ١/ ١٧٨؛ تاريخ الأدب العربي، فروخ: ٣/ ٨٥٠؛ تاريخ آداب اللغة: ٢/ ١٧٤.

شيء من تصانيفي، لأني عملتها في ابتداء الأمر. ثم لم يتهيأ لي من يُحررها معي سوى (شرح البخاري ومقدمته) و(المشتبه) و(التهذيب) و(لسان الميزان). وروى عنه في موضع آخر أنه أثنى على شرح البخاري والتعليق والنخبة. ولا ريب أن أجلّ مصنفاته (فتح الباري) وكان شروعه في تصنيفه سنة ٨١٧ على طريق الإملاء. ثم صار يكتب من خطّه، يداوله بين الطلبة شيئاً فشيئاً. والاجتماع في يوم من الأسبوع للمقابلة والمباحثة إلى أن انتهى في أول يوم من رجب سنة ٨٤٢ سوى ما ألحق فيه بعد ذلك، وجاء بخطِّه في ثلاثة عشرة سفراً، وبيض في عشرة وعشرين وثلاثين، وأقل وأكثر. وقد سبقه إلى هذه التسمية شيخه صاحب القاموس، فإنه وجد له في أسماء مصنفاته أن من جملتها «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»، وأنه كمل ربعه في عشرين مجلداً. وله مؤلفات في الفقه وأصوله، والعروض، والآداب، سَرَدها السخاوي، وقال بعد ذلك: إنها تهادت تصانيفه الملوك بسؤال علمائهم لهم في ذلك، حتى ورد كتاب في سنة ٨٣٣ من شاه رخ بن تيمور ملك الشرق يستدعي من السلطان الأشرف برسباي هدايا من جملتها (فتح الباري)، فجهَّز له صاحب الترجمة ثلاثة مجلداتٍ من أوائله. ثم أعاد الطلب في سنة ٨٣٩، ولم يتفق أن الكتاب قد كمل، فأرسل إليه أيضاً قطعة أخرى. ثم في زمن الطاهر جقمق جُهِّزت له نسخة كاملة. وكذا وقع لسلطان الغرب أبي فارس عبد العزيز الحفصي فإنه أرسل يستدعيه، فجهَّز له ما كمل من الكتاب. وكان يجهز لكتبة الشرح ولجماعة مجلس الإملاء ذهباً يفرق عليهم. هذا ومصنفه حيٌّ رحمه اللَّه، ولما كمل شرح البخاري تصنيفاً، وقراءةً، عمل مصنفه رحمه اللَّه وليمة عظيمة بالمكان الذي بناه المؤيد، خارج القاهرة في يوم السبت ثامن شعبان سنة ٨٤٢، وقرأ المجلس الأخير هنالك، وجلس المصنف على الكرسي. قال تلميذه السخاوي: وكان يوماً مشهوداً لم يعهد أهل العصر مثله بمحضر من العلماء والقضاة والرؤساء والفضلاء. وقال الشعراء في ذلك فأكثروا، وفرّق عليهم الذهب. وكان المستغرق في الوليمة المذكورة نحو خمسمائة دينار. ووقعت في ذلك اليوم مطارحة أدبية، فمنها أن المقام الناصري قال للمصنف: يا مولانا شيخ الإسلام هذا يوم طيب فلعلَّ أن تنعشونا فيه ببيت من مفرداتكم، لعل أن نمشي خلفكم فيه. فقال المترجم له: أخشى إن ابتدأت أن لا يكون موافقاً لما وقع في خاطرك، والأحسن أن تبتدئ أنت، فقال الناصري: [من السريع]

هَـويـتـهـا بَـيْـضـاءَ رُعـبـوبـةً قَـدْ شَـغَـفَـتْ قَـلـبـي خَـوْدٌ رَداحْ[1]

(١) الرعبوبة: الغضَّة الطويلة الممتلئة الجسم، أو البيضاء الحسناء الناعمة. الخَوْدُ: الشابة الناعمة الحسناء الخَلْق. امرأة رداح: ضخمة الأرداف، سمينة الأوراك.

فقال صاحب الترجمة:

سَـأَلـتُـهـا الـوَصْـلَ فَـضـنَّـت بـهِ إنَّ قـلـيـلاً فـي الـمـلاحِ الـسّـمـاحْ[١]

فقال علي الدوساني:

قَـدْ جَـرحـتْ قـلـبِـي لـمـا رَنَـتْ عُـيـونـهـا الـسُّـودُ الـمِـراضُ الـصِّـحَـاحْ[٢]

فَهَمْهَمَ الشرفُ الطنوني ولم يمكنه أن يقول شيئاً، فقال صاحب الترجمة.

* مـا لـلـطـنـونـي غـدا حـائـراً *

فقال الناصري لعليٍّ المُتقدم: أجزه، فقال: وحياة أبيك، السلاري والفرس، فقال: هما لك من غير مُهلةٍ وتراخٍ. فقال:

* وخَـربَ الـبـيـتَ وخـلَّـى ورَاحْ *

وكان للمترجم له يد طولى في الشعر قد أورد منه جماعة من الأدباء المصنفين أشياء حسنة جدّاً، كابن حجّة في شرح البديعية، وغيره. وهم معترفون بعلو درجته في ذلك. ومما أحفظه الآن حال تحرير هذه الكلمات قوله: [من مجزوء الرمل]

بَـنْـدُهُ الأزرقُ لـمَّـا شَـدَّهُ مَـنْ قَـدْ سَـبـانـي[٣]

جَـدْوَلٌ فَـوْقَ كـثـيـبٍ دَارَ يَـسْـقـي غُـصْـنَ بَـانِ[٤]

وهذا غاية في الحسن، لا يُلحق. وأورد له السَّخاوي في «الضوء اللامع» قوله: [من الطويل]

خَـلـيـلـيّ وَلَّـى الـعُـمْـرُ مِـنَّـا وَلَـمْ نَـتُـبْ ونَـنْـوي فِـعـالَ الـصَّـالـحـاتِ وَلَـكِـنَّـا

فَـحـتَّـى مـتَـى نَـبْـنـي الـبُـيـوتَ مَـشِـيـدةً وأعـمـارُنـا مِـنَّـا تُـهَـدُّ وَمَـا تُـبْـنَـى[٥]

وقد كان رحمه اللَّه مُصمِّماً على عدم الدخول في القضاء، ثم قُدِّر أنَّ المؤيد ولّاه الحكم في بعض القضاء، ثم عرض عليه الاستقلال به وألزم من أحبائه بقبوله فقبل واستقر في المحرم سنة ٨٢٧ بعد أن كان عرض عليه قبل ذلك وهو يأبى. وتزايد ندمه على القبول لعدم فرق أرباب الدولة بين العلماء وغيرهم، ومبالغتهم في اللوم لردِّ إشاراتهم وإنْ لم تكن على وفْقِ الحقّ، واحتياجه لمداراة كبيرهم وصغيرهم بحيث لا يمكنه مع ذلك القيام

(١) ضَنَّتْ: بخلت. المِلاح: الحِسَانُ.
(٢) رنت: أدامت النظر مع سكون طرف. عيون مِراض؛ فاترة، منكسرة الأجفان.
(٣) البند: العلم. سباني: أسرني.
(٤) الكثيب: مجتمع الرمل، أو الطويل المحدودب منه.
(٥) بيوتٌ مشيدةٌ: مرتفعة البنيان.

بما يرومونه. وصرّح بأنه جَنَى على نفسه بذلك، ولم يلبث أن صُرِف، ثم أُعيد، ولا زال كذلك إلى أن أخلص في الإقلاع عنه عقب صرفه في جمادى الآخرة سنة ٨٥٢. وجميع مدد قضائه إحدى وعشرون سنة، وزهد في القضاء زهداً كبيراً لكثرة ما توالى عليه من المحن والأنكاد بسببه. وصرح بأنه لم يبقَ في بدنه شعرة تقبل اسمه. وقد درّس بمواطن متعددة، واشتهر ذكره وبعد صيته، وارتحل إليه العلماء، وتبجح الأعيان بلقائه والأخذ عنه. وأخذ الناس عنه طبقةً بعد طبقة. وألحق الأصاغر بالأكابر، وامتدحه الكبار، وتبجح فحول الشعراء بمطارحته. واستمر على طريقته حتى (مات) في أواخر ذي الحجّة سنة ٨٥٢ اثنتين وخمسين وثمانمائة. وكان له مشهدٌ لم يَرَ مثله من حضره من الشيوخ، فضلاً عمَّن دونهم. وشهده أمير المؤمنين والسلطان فمن دونهما. وقدم الخليفة للصلاة عليه، ودفن تجاه تربة الديلمي بالقرافة، وتزاحم الأمراء والكبراء على حمل نعشه.

٥٢

(أحمد بن عليّ بن هَادي النهمي ثم الصَّنعاني)

ولد سنة ١١٣٠ ثلاثين ومائة وألف، ونشأ بصنعاء، واتصل بالإمام المهدي العبَّاس بن الحُسين قبل أن يلي الخلافة. وبعد أن ولي الخلافة جعله الوزير الأعظم، واستمر وزيراً حتى (مات). وكان صادق اللهجة، كثير البر والإحسان، ملازماً للطاعات والجماعات، مقبلاً على أهل العلم والفضل، كثير السعي فيما فيه صلاح المسلمين، لا رغبة له في الشرِّ، ولا يجلبه إلى أحد. وأحبه الإمام المهدي محبةً شديدةً، وكان يُعوِّل عليه في جميع الأمور. ولم يكن كثير المال مع كونه قد ولي الوزارة زيادةً على خمسٍ وعشرين سنة، لأنه كان لا يأخذ إلَّا على وجهٍ يأمن من عاقبته، ولو فعل كما يفعل غيره لترك من المال ما لم يسمع بمثله في وزارة الخلفاء باليمن. (ومات) ليلة الاثنين ثاني وعشرين ربيع الآخر سنة ١١٨٦ ستٍّ وثمانين ومائة وألف.

٥٣

(أحمدُ بن عِمَاد بن يُوسُف
ابن عبد النبي الشّهاب أبو العبَّاس الأقفهسيّ ثم القاهريّ)[1]

الشافعيّ، ويعرف بابن العماد. قرأ على الإسنوي، والبلقيني، والباجي،

(١) ترجمته في: الضوء اللامع: ٢/ ٤٧؛ شذرات الذهب: ٧/ ٧٣؛ كشف الظنون: ٣/ ٦٣، ١٣٥، ٤٠٧، ٥٠٨؛ إيضاح المكنون: ١/ ٣، ٣٥، ٢/ ١١، ٢٢٩؛ معجم المؤلفين: ٢/ ٢٦؛ الأعلام: ١/ ١٨٤.